السنة الرابعة ـ العدد ٤١ ـ جمادى الثانية ١٣٩٩هـ ـ مايو ١٩٧٩م

البدوحة

مجلة شهرية ثقافية جامعة
ملتقى الابداع العربي والثقافة الانسانية

العرب والتكنولوجيا

سلامة على ابواب حرب أهلية

في ميدان الفكر والثقافة

لغة الضاد

وصناعة السفن

العائد

زعقت صفارة القطار كما لم تزعق من قبل . دوى صفيرها في الأفق بحدة فالتطمئن عيامه كأنه لم يكن منتظرا ان يؤذن لمحركه القطار بصفير . انطلقت العاملة في بطء على صوت عجلات لاهثة لئن يحملها تنفث حركتها المتعبة في رتابة مثيرة. بدأت جدران المحطة وقبيها السوداء تتحرك عكسيا كما لو كانت هي الاخرى على موعد سفر . قاطرات وحافلات تقف مودعة وقد امتلأت بها أبهاء المحطة الكبيرة . ضجيج هائل تردد اصداءه القبة الكبيرة يدلف الى نفسه فيملأها بالرعب . اختلفت أصوات المودعين والمودعات ، بدأت الابتسامات تبهت ، بسمات الأدرع المودعة تختفي. وقف في مكانه يحدق من النافذة . لم يكن هناك مودع . ولا مودعة . جدران سامقة . نوافذ مغلقة ، مفتحة ، جديدة متجددة ، قديمة مهترئة ، رؤوس تطل من هذه النافذة أو تلك ، كأنها هي الأخرى تريد ان تودع .. أولئك الذين لم يكن على الرصيف من يودعهم . المداخن الكبيرة هي الأخرى تنفث دخانها . ما تزال هناك طاقة تنفث دخانا . أولئك الذين يتحركون داخل المعامل لم تلفظهم المدينة كما لفظته . أدرعها الرحيمة تحتضن آخرين يعطون الحياة لهذه الآلات الهادرة في مكامنها . ومدينة ، سان ثيتيان ، لا تريد ، أن تبتعد ، عقول من المصانع والمعامل قابعة هنا وهناك . القطار يشق طريقه المتئدة وسطها ، وهي تشق طريقها في الحياة لا تعبأ بأولئك الذين لفظتهم المدينة فحملهم القطار الى بعيد . تجولت عيناه في ضواحي المدينة التي اوته سنوات من شبابه . لم يكن يعرف أبعادها حتى حطه القطار اليها وهو يودعها الى غير لقاء .

اختفت المدينة ، توارت جدرانها، دورها، معاملها، انسانها . انطلق القطار اللاهث في مسيره المتئد يتلوى بين الحقول والمزارع . من بعيد تشرف جبال قاحلة تظللها غيم سود . لا تصده صخورها العاتية ، يجري نحوها كأنه يود أن يقتحمها. واحتضنت الجبال السامقة عربات القطار . اطبقت عليه ، تلاقت ادرعها الممتدة من يمين وشمال ، وما يزال يفتح طريقه في الظلام الدامس يبطء. يصعد ، ينزل ، ورذاذ من المطر يبلل قضبانه الحديدية كما لو كان يريد أن يخفف من حرارة اللقاء بينها وبين عجلات تلتحمان في غير رحمة .

رشاش الأفق في وجه «ابن عيسى»

حط في مكانه ، امتدت يده يغير رعي . عانت اصبعاه بدخينة تناولتها شفتاه . انتفت الوقيعة في عنف . عب من الدخينة برئتين ساديتين . من خلال الدخان المتكاثف بدت تقوح أمامه بعينيها الزرقاوين وشعرها الأشقر المنفوش ووجهها القائم يحمل هم الدنيا . حفرت الآلام اخاديد لم تخفها المساحيق. بدت عميقة كما لو كانت تحدث عن ابنة المئتين . عشرون سنة قفزت بالوجه الذي كان صبيحا الى ما قبل بضعة أيام . كانت عيناها ساهمتين تبحثان عن مستقر . تحدقان في فراغ . الأفق الضيق أمامها يحده وجه ابن عيسى الاصمر. العينان الزائغتان لاتستقران في مكان . الاطفال الخمسة يلهون. يدخلون غرفة العربة ويخرجون ، يقفلون الباب ويفتحونها ، يتصرفون كما لو كانوا في عالمهم الصغير . لا يعرفون اين كانوا ولا الى اين يسيرون . اكبرهم فقط كان يجلس في حيرة يقلب عينيه بين وجه امه الأشقر ووجه والده الاصمر ، يحاول ان يقرأ ما وراء الملامح التي بدت قاسية في سمرتها . ما وراء الملامح التي بدت متألقة في شقرتها . حدثته والدته انهم سيذهبون الى بعيد .

حدثه والده انهم عائدون . وهو لا يعرف عن هذه البلاد التي سيعودون اليها الا ما يحكيه والده احيانا حينما يتساقى الحديث مع زوجته :

ـ عدنا الى البلاد ...

وهو يذكر مع ذلك كما يذكر الاطفال عادة اخر لا يذكر اكان ذلك في يقظة أم في منام . يذكر وجه سيدة عجوز كانت تضمه الى صدرها وتقبله ثم تقبله الى ان يضيق بقبلاتها فينفلت من بين ذراعيها . قال له والده انها جدته . وما يزال يحدثه عنها ، وقد نسي كل شيء عن عالمه ذاك الا الوجه الذي كان يعبر عن عاطفته بالقبلات.

حينما سمع الصغير بو جمعة ـ كلود ، كما كانت امه تدعوه في غيبة والده ـ انهم عائدون الى البلاد حاول ان يخرج من عالم النسيان ليتذكر « البلاد » هذه التي يتحدث عنها والده كما لو كانوا جميعا يعرفونها ويتكون ملامحها . ولكن ذكراه عنها لم تكن تعدو المرأة الحبية التي

قصة قصيرة بقلم: عبد الكريم غلاب

كانت تحتضنه وتقبله ، ويستعيد ذاكرته فيذكر الاطفال الذين كانوا يتندرون به وهو ينطق الكلمات في لكنة أعجمية. كان يهرب منهم حينما يقسون في ضحكاتهم المدوية ، وكان يعود اليهم حينما تقسو عليه الوحدة أو حينما لا يجد في البيت الصغير الفقير الضيق غير العجوز التي تذكر وهي تقبله في حنان وشوق يوم كانت تقبل ابن عيسى والتيباري .. و .. و .. كلهم فروا . طوحت بهم الحياة الى مغاور خريبكة والبرنوصية وجرادة .. يبحثون عن لقمة خبز، ولا يذكرون العجوز التي لم تعد صحتها تسعفها أن تشتغل خادمة أو سباتة .

عاد بو جمعة من ذكرياته. اندفع يحطم جدار الصمت الذي انتصب بين العينين السحراوين والعينين الزرقاوين :

ـ بابا ... هل سنزور جدتي في رحلتنا هذه ؟

عاد ابن عيسى من رحلته الطويلة على صوت بوجمعه . لم يذكر أمه فيما بدا له وهو يستعد للعودة . كأنه يذكر لاول مرة أن له أما يدعوها بوجمعة « جدتي » تنقلت العينان الزرقاوان بين بوجمعة وابن عيسى. هي الاخرى تذكر لاول مرة ـ فيما بدا لها ـ انها ستزور سيدة عجوزا يدعوها ابنها « جدتي » . عادت بها الذاكرة الى الام التي تركتها هناك ، في مسانتيان. الام التي لم تستطع قضاءها أن تحملاها الى المحطة لتوديعها .

ـ متى سيحملنا القطار في الاتجاه المعاكس نحو سانتيان ليسأل الاين : هل سنزور جدتي في رحلتنا هذه ؟

هكذا فكرت وكلمات ابن عيسى تقتحمان سمعها :

ـ نعم سنزور جدتك ، وسنعيش معها .

وفكرت في القرية الصغيرة الفقيرة في الكوخ الصغير الفقير الذي ستعيش فيه مع ابن عيسى وأمه وابنائها الخمسة . عادت عيناها تغترفان من دموع اللوعة ...

القطار ينهب الارض . الاطفال يلعبون . ابن عيسى يقذح دغينة بعقب اخرى . بو جمعة وحده يدرك ان هناك سرا وراء هذا الصمت المطبق . حينما يكون أبوه غاضبا يصحب، يصيح بهذه ، يثور ، يضرب الارض بما يقع تحت يده . حينما تكون امه غاضبة تشتم ، تتحدى ، تثير الاطفال ، تضربهم . ولكنهما الان هادئان . لا ثورة ولا صخب ولا شتائم. شيء ما له صلة بهذه الرحلة المفاجئة التي تركت فيها الاب العمل ، وتركت الام عملها ليحملهما القطار الى بعيد . شيء ما يجثم على الاب والام فيحول غضبهما الثائر الى غضب هادىء .

هكذا كان العقل الصغير يفكر وهو قابع في زاوية من مقصورة القطار.

ثلاثة أيام اينهج فيها الاطفال بالقطار والسيارة والباخرة . شفسان وحدهما لم يبتهج قلباهما للرحلة الطويلة. وكأنهما كانا يسافران الى جحيم . بو جمعة وحده كان يعيش بين تيارين يجتثانه في عنف: تيار الاخوة في سمائهم بالحياة الجديدة بين الماء والسماء ، وتيار الاب والام وهما يجتران شقاءهما الذي تغلله سحابة سوداء تخفي ملامح الام في شقرتها وصفاء عينيها تخفي ملامح الاب في رجولته وصبره واستهانته بالحياة .

حملت العائلة المكدودة رحالها في « بجعد » . اينهجت الام العجوز :

ـ استجاب الله دعائي .. الان قلبات الموت . كنت أخشى أن يغيبني القبر وأنت بعيد .

قبلات نابضة بالحب تغمر الاطفال وكأنها تستعيض بالقبلة عن الكلمات التي لم تفهم عنها .

ـ أي دعاء هذا الذي استجابه الله .. ؟؟

هكذا حدثت سوزان نفسها ·

ويفكر ابن عيسى في صمت :

ـ الم يكن الاجدر بها ان تدعو لنا بالبقاء فيستجيب الله ·· ؟

وينفق ابن عيسى في سخاء فيزيد من ايتهاج الام التي لا تعرف غير الجوع · لا تذكر « الفقة » واللحم والخضر منذ كان ابن عيسى في زيارتها قبل سنوات، سنوات لا تذكر عددها ··

ويتمتم ابن عيسى عن الكوخ الفقير البارد · يعود في اخر المساء لتقرأ « سوزان » على ملامحه اليأس ·· لا تشرق في الكوخ غير ابتسامة العجوز السعيد بعودة ابنها واطفاله لا تتردد في الكوخ غير ضحكات الاطفال وهم يلعبون ويتشاجرون ·

ديت الحياة في كوخ لم يعرف غير الصمت ·· وسمال عميق تتفقه الرنتان الهشرتان ·

ـ ابن عيسى ·· الم تهتك بعد الى عمل ؟

بهذه الكلمات خرجت سوزان عن صمتها بعد اسابيع ضاقت فيها بالوحدة والبطالة والالم المسن ·

ورنت ضحكة جريحة ساخرة من الرجل الذي تعلم الا يشكو :

ـ نعن في « بجعد » يا سوزان · ولو كنت اجد عملا هنا لما تعرفت بك في سانتيتيان ···

سنعة اخرى تحملتها في صبر · دافع قوي كان يحدو بها الى القول :

ـ ··· والدار البيضاء ·· ؟

ايام قضاها ابن عيسى في المدينة الكبيرة الصاخبة يبحث عن عمل · تذكر خروجه التي كان يلقاها باحثة عن عمل · تذكر الابواب التي كان يقف خلفها في صبر، الايام الطوال، والعودة الباسمة التي دفعت به الى الهجرة · اراد ان يقول :

ـ المدينة التي دفعت بي الى الميناء لا يمكن ان تستقبلني بترحاب ··

لكنه يلم الكلمات الصادقة في يأس اكتسى صوته رنة الامل وهو يجيب في اقتضاب :

ـ سنحاول ·

تاهت العينان الزرقاوان تشيعهما حمرة الالم في المجهول · فكرت :

ـ لو كنت اجد انا عملا هنا لايجد الرجال ولا النساء من ابناء البلد وبناته ·· ايام الماضي كنت اجد· اين التقي بهذا الماضي الذي راني ···؟ لو كنت عملة ـ هيل في ـ لكنت وجدت عملا كهؤلاء الالاف من المعلمين والمعلمات ·· لو كنت مجرد كاتبة ··· ولكني حتى هناك ، وقد بحثت خويلا · لم اجد غير ابن عيسى · والعمل التافه الذي يشغلني لمجرد ان اشتغل ·

سبحت في ذكرياتها الاليمة · ظروف العائلة لم تسمح لها ان تتعلم · عاملة بسيطة في معمل كان محطها منذ ابن عيسى وخمسة اطفال ·

ذات مساء مليد بغيوم حاد ابن عيسى يحمل على كتفيه هم الدنيا · بدا ينفد ما ادخره من مال· التمويض الذي دفعته له ادارة المعمل ـ وهي تشطب اسمه من قائمة عمالها ـ التهمه القطار وسيارة الاجرة والباخرة · بعد شهر او يزيد قليلا لن يتمكن من ان يدفع اجر الكوخ الذي تستضيفه فيه امه · كان يبحث لها ما تدفع به اجرة الكوخ واللقمة التي تتبلغ بها · واليوم · لعله · سيطلب اليها ان تدفع له ·

نفث مع دقيقته اهة حرى اطلقت لسان العجوز· التي غاضت الابتسامة من شفتيها وقد تسرب اليها هم ابن

عيسى وهمسوزان :

ـ الحسرة لعنوله يا بني ···

توقفت قليلا وهي تحدق في وجه ابن عيسى في لوعة قبل ان تضيف :

ـ ابن عيسى يا ولدي انت غير مرتاح معنا· هل من الم يلم بك ···؟ توقفت قليلا ثم استدركت :

فقيه الحي سيدي مبارك يمكن ان يكتب لك حجابا ·· رجل فاضل ، يده مبروكة ·

وانتظرت الجواب من العينين الزائغتين في الفضاء حتى يئست فعادت تقول :

ـ او هي « النصرانية » ما تزال تطاردك لعنتها حتى تخير سوايك ؟ قلت لك يا بني ···

قاطع ابن عيسى امه وكلماتها تضغط على اعصابه كلما اعادت حديثها القديم عن سوزان :

ـ ··· يا امي الله يهديك ·· الم يكفني ويلي حتى تثيرين مرة اخرى الحديث القديم ·

مع كلمة « ويلي » انفتحت عينا العجوز على ابعادهما وكانها تدرك لاول مرة منذ عاد ابن عيسى يعاني مشكلة معقدة · طامنت من صوتها واكتست نبراتها حنانا لمس منه احساسه العاطفي :

ـ ويل الشيطان · لا ويلك يا ابني ليس قصدي ·· رايتك مهموما فاردت ان اساعدك ···

ذكر ابن عيسى انه كان يلجا الى امه لمساعدته كلما حز به امر · كان يكب على يديها يقبلهما ويرجوها ان تدعو له بالفرج وكان يشعر ان دعواتها تجد سبيلا الى السماء · فاكب على اليدين المعروقتين وقد فاضت عيناه بدموع الالم :

ـ دعواتك يا امي · انا الان في حاجة اليها ···

احتضنت الام الراس الاشعث تقبله وتدعو له :

ـ الله يفتح بصيرتك للخير ...

ولكن مم تشكو يا بني ... ؟

كان يعترف لأمه وهو صغير بحس ان الكابوس يزاح عنه كلما اعترف شيء ما كان يشعر به امام الام التي كفلته وهو يتيم . الام التي كانت ـ وهي شابه ـ تظل تغسل ثياب الناس وتعود اليه والى اخوته في اخر النهار باكلة لذيذة ومربيهات تقيهم مغبة الجوع . وهو اليوم في مثل مركزها القديم ، ولكنه لا يستطيع حتى أن يغسل ثياب الناس ليعود اليها والى اطفاله وزوجه بالاكلة اللذيذة والمربيهات المحدودة . واكب مرة اخرى على اليدين المرهقتين يغسل في تجاعيدهما دموعه :

الا تعرفين يا امي التي عدت من فرنسا بلا عمل .

عادالى طفولته وهو يجهش :

ـ ... طردت من العمل كما طرد الاف غيري لان فرنسا استغنت عن عملنا .

توقف يبلع ريقه المرّوع بمغاطه. احس بالمزيد من الاعتراف ، بالحاجة الى الشكوى كما لم يحس بها مع سوزان .

ـ دعوانك يا امي . أنا الان في حاجة الى مزيد من حنانك ودعوانك اريد عملا ...

انبعثت ، امي فاطمة ، صبرها واستهانتها بالاحداث كما لو كانت ما تزال شابه تعتمد على سواعدها :

ـ انت يا ابني ما تزال شابا . فرنسا لم تكن تريدك الا لانك شاب . رزقك هناك لا هناك ... قلت لك الف مرة : « المكسي بديال الناس عريان » ... اولاد الناس كلهم يعملون ويكسبون هنا ، في ارضنا الطيبة . كنت يوما ما ستعود . احمد الله ان عدت وما تزال قادرا على العمل. اولئك الفنصاري لا يحبونكم . درهم الحلال نكسبه مع التعب والعطف .

كنت يا بني لا اصين لعائلة لا تحبني ولا تحترمني ، وكنت اعيش .

لا انكر ان عائلة ما طردتني لانهم جميعا مني ، عائلتي . كلهم كانوا يناديني : « امي فاطمة » واجد بينهم الحب . اهم شيء مما كنت اكسبه.

توقفت وهي تجهد نفسها لتصد عن عينيها دموع الالم . كانت بيساطتها تشعر بان رسالتها الى ابن عيسى ان تتجلد لتذهب عن نفسه المعزز الالم. عاد امامها ذلك الفتى الذي كان يحن الى نصائحها . وعاد اليها خيف من شبابها الذي كان يغرق اولادها في الحنان والعطف. انبعث صوتها اقوى مما كان وهي تضيف :

ـ قم يا بني وابحث عن عمل . « يجعد » ان تضيق بك . اصرف نظرك عن الماضي . كنت اخرج من دار غسيل لاجد غدا دارا اخرى. وما متنا جوعا في يوم ما . المرحوم والدك ترك عمله عدة مرات فمااشتكى ولا حزن ولا بكى . كان مثلك يعتمد على سواعده ...

اختنقت بدموع الذكريات . انتفضت تذر عن عينيها دموعها وهي تضيف :

ـ ... الله يرحمه . كان يؤمن بنفسه . ومما فكر ان يشتغل مع نصراني . قم يا بني . ابحث عن العمل فستجده .

نهض ابن عيسى من بين يدي امه بروح جديد كما لو كان يخرج من مخبأ الاعتراف. وقف طويلا الكوخ مفتح العينين على ايمانهما يتطلع الى الاكواخ المهترئة والزقاقات الضيقة القذرة ، حوله اطفال وطفلات يلعبون حفاة باسمال بالية. اصواتهم الصاخبة تنبعث من القلوب بريئة لم تعرف هموم الحياة سبيلا اليها .

سار في طريقه لا يدري الى اين عكست الزقاقات والاكواخ امام ناظريه مسيرة اخرى منذ بضع سنوات ، لا ينكر حدسها ، كان فيها يودع . الان يسير وهو يستقبل . يكاد يعانق . كان طريدا . اصبح الان يشعر بهتافات الاطفال والطفلات كانها تحية له وترحيب. انطلق صوت يهتف بأذنيه :

ـ العودة ... العودة ...

احس كانه عاد الف سنة بعد ان كان مستلبا . كان يبيح جهده ، عضلاته ، شبابه للاخرين . انتفض كما لو كان يريد ان يدفع تهمة :

ـ هم الذين كانوا يبيعوننا . نخاسون يتاجرون بحريتنا . شاقرا بنا في بلدنا وبين اهلينا . باعونا بلقمة خبز ناكلها . ندفع بدلها عملة صعبة .

اجاب صوت اخر من اعماقه :

ـ العهد الذي مضى بين افريقيا واوروبا يعود اليوم : السود والسمر والبيض يلعبون فيه نفس الدور ...

اجاب الصوت الاول في امل :

متى ... متى يقتلون ابرايهم في وجوهنا جميعا ؟

اجاب الصوت الثاني :

ـ ... وستنتهي المأساة ...

هدات الاصوات المتربدة في اعماق ابن عيسى . انتبه الى نفسه ليجده يخد السير كانه على موعد يقترب أوانه . ارتسمت على فمه ابتسامة عريضة اسرع متفتح القلب والنفس الى المينا . في الحي الصناعي بهرته المداخن والمعامل وحركة الشاحنات والانسان الذي يضج وجهه شقاء العمل .

قال لنفسه وهو يبحث عن عمل :

ساجد ... ساجد ... ان شاء الله تعالى .